



الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية (٢ من ٢) ميتران بين صدى التاريخ والبحث عن الاجماع

أثار تزامن قمة الدول الصناعية مع احتفالات الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية موجة من الانتقادات في اوساط تؤيد عادة سياسة فرنسوا ميتران، وذلك لأن وجود «الاغنياء» يضيف على الاحتفال بحدث شعبي طابعاً غريباً عنه.

والتزامن ليس مصادفة، اذ ان ميتران تعمد تأجيل القمة المقررة اصلاً في الربيع، الى اواسط تموز (يوليو) حتى يعطي حضور رؤساء الدول والحكومات الست ثقلاً اضافياً للاحتفالات. وعندما استدرك الفرنسيون الخطأ بدعوة عدد من زعماء العالم الثالث، تنبه البعض الى ان المدعويين ليسوا كلهم من ورثة الثورة الفرنسية او من الاولاد الروحيين لاعلان حقوق الانسان. لكن المهم بالنسبة الى ميتران لم يكن في ذلك. المهم هو ان تأخذ الاحتفالات طابعاً عالمياً في هذا الوقت بالتحديد الذي يتحدث الكثير من الفرنسيين عن انحطاط فرنسا. اذ كيف يمكن القول ان فرنسا دخلت مرحلة الانحطاط عندما تستطيع ان تجمع اكثر من ثلاثين رئيس اجنبي للاحتفال بثورتها وبعيدها الوطني؟ وكيف يمكن التفكير في الانحطاط حين يكون رئيس فرنسا قادراً على جمع العالم الصناعي والعالم الثالث؟

والكلام على الانحطاط لا يراد به في الضرورة التجريح بفرنسوا ميتران، اذ ليس هذا الكلام جديداً بل يعود الى فترة الخمسينات، وان كانت العظمة الديغولية قد استطاعت صرف النظر عنه مؤقتاً. بيد ان مقولة الانحطاط عادت وشاعت في الفترة الاخيرة، خصوصاً في عهد ميتران، على رغم انه حفل بمظاهر الفخامة. والملفت ان ما يغذي هذا الطرح لا يكمن في السياسة الدولية لفرنسا والتي لم تتغير كثيراً منذ افول المشروع الاستقلالي الديغولي، وانما في الخمول الذي يبدو انه انتاب المجتمع الفرنسي منذ سنوات. بالطبع، يمكن الرد على ذلك بالمثل الذي كان يردده الرئيس الراحل جورج بومبيدو ان «ليس للشعوب السعيدة من تاريخ». قد لا يكون الشعب الفرنسي سعيداً بالمعنى السامي للكلمة، لكن المثل أخذ ينطبق عليه اكثر واكثر. والمفارقة ان يغيب التاريخ في عهد رئيس مولع بالتاريخ ودائم التنبه الى صداه. ولا شك ان في ذلك ما يؤلم ميتران في اعماقه. وقد يكون رده على هذا التناقض الاليم ان يتلبس دور المبشر بمدنية القرن الواحد والعشرين القائمة على الاعتناء بالبيئة وبعده ادنى من التكافل الاجتماعي وبنمط جديد من العيش يحتل فيه الهم الترفيهي حيزاً كبيراً. وتأتي اليوم الاحتفالات بذكرى الثورة لتجسد صورة حضارة الترفيه هذه.

لقد دهش الكثير من الفرنسيين قبل اشهر عندما اعلن ان وزارة الثقافة كلفت المصور والمخرج جان بول غود تصميم العرض الفني الذي سيقام اليوم لمناسبة العيد الوطني، في ما يشكل ذروة الاحتفالات بالمئوية الثانية لذكرى الثورة. ومثار الدهشة كان غياب أي تطابق بين شخصية اشتهرت في مجال الدعاية وعرفت لاهتمامها بالشكل والشكليات، ومناسبة وطنية بحجم ذكرى الثورة. وقد عبر بعض رجال الصحافة عن استخفافهم لهذا القرار. الا ان الصحافة الشعبية والرصينة على حد



سواء، عادت وصادقت عليه، فتعاملت مع العرض الذي سيقدمه غود باعتباره فعلاً حدث السنة. ولم يكف التلفزيون عن الترويج له، حتى أصبح هذا العرض الفني يختصر سائر الاحتفالات بذكرى الثورة. واخذ التلفزيون يردد منذ ايام شعاراً وحيداً: «فليبدأ العيد»...

وهكذا، تحول الاحتفال بالثورة الى انتصار للمجتمع الاستعراضي ولمقولة حضارة الترفيه. وكان ابتداء فرنسوا ميتران، فور وصوله الى السلطة سنة ١٩٨١، «وزارة وقت الفراغ» قد أذن بدخول هذه الحضارة الى فرنسا. وبهذا المعنى، تؤكد الاحتفالات المقررة لذكرى الثورة، من حيث نوعيتها، ان المجتمع الاستعراضي بات عنوان حضارة الترفيه في فرنسا.

أية فرنسا؟

من الواضح ان الذي حدد نوعية الاحتفالات بذكرى ١٧٨٩ كان التقاء عنصرين، اولهما شخصية فرنسوا ميتران الذي يهوى مظاهر الفخامة. اما الثاني، فهو طبيعة الطرف التاريخي الذي تعيشه فرنسا منذ سنوات. وفرنسا التي تحتفل اليوم بذكرى ثورتها هي قبل كل شيء وليدة ثورة اخرى وان كانت اقل ضخامة، وهي ثورة ايار ١٩٦٨. اذ ان ثورة ١٩٦٨ التي اطلقت مرحلة من التسييس ذات طابع يساري ما لبث ان تبدد، اعطت ثمارها الحقيقية في اواخر السبعينات على شكل تحولات مجتمعية كان ابرزها اعادة الاعتبار الى الفرد والبحث عن السعادة الفردية. وقد تزامنت هذه التحولات مع تراجع الفكر اليساري تحت وطأة التحجر الذي اصاب الاتحاد السوفياتي وفشل التجارب الثورية في العالم الثالث. وكانت محصلة هذه المرحلة التي شهدت بداية «موت الايديولوجيات». تراجع الوعي السياسي، يميناً ويساراً، والابتعاد عن السياسة.

ومن اشد المفارقات في تاريخ فرنسا الحديث ان يفشل اليسار في الوصول الى السلطة يوم كان مهيمناً على الحركة الثقافية لينجح اخيراً في وقت انكشف فيه انحسار الفكر اليساري. واياً كانت الاسباب الكامنة وراء مجيء ميتران عام ١٩٨١، وبعضها متصل بشخصية منافسه وسلفه فاليري جيسكار ديستان، فقد واكب الرئيس الجديد هذا المسار التاريخي وعمقه الى حد بعيد. وشكل تحول الحزب الاشتراكي الى الوسط وتخليه عن جزء كبير من عقيدته الترجمة السياسية للمفارقة المشار اليها. وقد عزف عن المعركة الوحيدة التي كان بدأ يخوضها جدياً مع خصومه حول موضوع التعليم الخاص. وترافق تحول الحزب الاشتراكي مع تغيير جذري في الخريطة السياسية الفرنسية. فأضافة الى تضخم حجمه الانتخابي، اصبح منافسه اليساري، وهو الحزب الشيوعي، هامشياً، بينما تخلى اليمين الديغولي عن تقليده الشعبي ليصبح حزب ارباب العمل. وترك لحزب يقف على طرف نقبض من كل تلاوين الايديولوجيا الجمهورية التعبير عن البعد الاحتجاجي في المجتمع الفرنسي. وقد فاقمت النجاحات الاولى للريغانية والثاتشرية آثار هذا التحول، فاعادت الاعتبار الى العقلية الليبرالية. ثم جاءت تجربة التجاور بين ميتران في رئاسة الجمهورية وجاك شيراك في رئاسة الحكومة (١٩٨٦ - ١٩٨٨) لتظهر، على رغم الخلافات بين الرجلين، مدى انعطاف المجتمع الفرنسي وسطاً. فقد سادت النزعة الاجتماعية او التوافقية في السياسة الفرنسية. حين اعيد انتخاب ميتران في العام الماضي، لم يتم ذلك على اساس برنامج اشتراكي، بل بناء على مشروع توافقي ترجم في شعار «فرنسا الموحدة».



بالطبع، لم يؤد «موت الايديولوجيات» الى غياب القضايا التي كانت تتسبب في الصراعات الايديولوجية، لكن تناولها اصبح مغايراً. فمناهضة العنصرية مثلاً غلب عليها طابع الاحتفال بالاخوة الانسانية بدل التنديد السياسي بالامس. وازدهرت العمليات الانسانية الهادفة الى معالجة المرضى في العالم الثالث بقدر ما تراجع افكار التضامن بين الشعوب. وعادت الديموقراطية بمعناها الغربي الراهن تشكل افق اي تحرك سياسي دولي، الى حد انها اصبحت تغذي نرجسية جديدة تبثها كل يوم وسائل الاعلام على ايقاع «نحن وهم»، نحن المتحضرين وهم العاجزين عن الوصول الى حقوق الانسان والديموقراطية. ويكتسب التشديد على جانب حقوق الانسان في احتفالات الثورة مغزى أكيداً في هذا الاتجاه.

ومع تخليه عن موقعه السياسي الاصلي، اصبح ميتران يتمتع بشعبية كبيرة جعلت منه نوعاً من الأب للمجتمع الفرنسي. وهو يؤكد دوماً على هذه المسافة بينه وبين الآخرين من خلال تصرفاته الشخصية. بل ان احد الفكاهيين اطلق عليه تسمية «الاله» التي شاعت واصبحت ملازمة شخصية الرئيس.

وكان ميتران منذ بداية عهده الاول حرص على الشروع في مشاريع كبرى جسدت حبه للفخامة او حسب ما يقول البعض للمظاهر الفرعونية. وبالفعل، قد يكون ميتران اكثر رؤساء فرنسا نشاطاً في المجال المعماري. فالى جانب المشاريع التي كان بدأ البحث فيها في عهد سلفه والتي اعاد بنفسه تحديد أطرها (معهد العالم العربي، متحف اورسيه وحديقة لافيليت)، اطلق ميتران مشاريع ضخمة ابرزها تحويل قصر اللوفر الى اكبر متحف في العالم بعد نقل وزارة المال منه، وتشيد هرم زجاجي في باحته، وبناء دار اوبرا جديدة وتشيد قوس ضخم في حي «لا ديفانس». وما كادت هذه المشاريع ان تنتهي حتى بدأ التحضير لبناء مكتبة وطنية جديدة يشاع منذ الآن انها ستحمل يوماً اسم فرنسوا ميتران.

يقال عن ميتران انه يملك حساً تاريخياً مرهفاً. ولا شك في انه قد حدد لنفسه الزاوية التي يدخل منها التاريخ. واذا اجيز قراءة ما في نفسه من سياسته الظاهرة، امكن تحديد نظرته الى صورته التاريخية بعنصرين: عمله المعماري الذي يهدف الى توسيع اطار حضارة الترفيه التي نادى بها وتجميلها، وسعيه الى الاجماع في محاولة لمصالحة فرنسا مع نفسها ولانهاء الحرب الاهلية الباردة التي طالما ميزت هذا البلد. وبهذا المعنى، ليس خطأ القول ان الاحتفال الاستعراضي بالحد الأدنى المشترك من تراث الثورة الفرنسية هو في المطاف الاخير احتفال ميتران بنفسه.

سمير قصير



Id-Reference	89-Pr-000541	
Media	(Support)	HC
Title		الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية (٢ من ٢) ميتران بين صدى التاريخ والبحث عن الإجماع
Subtitle		أية فرنسا؟
Section		
Language		عربي
Source		الحياة
Page		١١+١
Date		15/07/1989 ١٩٨٩/٧/١٥
Author From		سمير قصير باريس
Co-Author		
Keywords		
	Persons	فرنسوا ميتران - جورج بومبيدو - جان بول غود - فاليري جيسكار ديستان - جاك شيراك
	Locations	فرنسا
	Dates	1981 - 1789, -- : 05 : 1968,
	Themes	قمة دول صناعية - ثورة فرنسية - ذكرى مئوية ثانية - احتفالات - عالم ثالث - عيد وطني - فرنسا - فرنسوا ميتران - ديموقراطية - ديغولية - جورج بومبيدو - جان بول غود - حزب شيوعي - يمين ديغولي - حضارة - ثورة أيار - فكر يساري - يسار فرنسي - سلطة - حزب اشتراكي - قصر لوفر -
Subject		على ضوء ما أثار تزامن قمة الدول الصناعية مع احتفالات الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية من انتقادات في أوساط تؤيد عادة سياسة فرنسوا ميتران: كان المهم بالنسبة لميتران أن تأخذ الإحتفالات طابعاً عالمياً في الوقت الذي يتحدث الكثير من الفرنسيين عن انحطاط فرنسا، إذ كيف يمكن القول أن فرنسا دخلت مرحلة الإنحطاط عندما تستطيع أن تجمع أكثر من ثلاثين رئيس أجنبي للاحتفال بثورتها وبعيدها الوطني؟ وكيف يمكن التفكير في الإنحطاط حين يكون رئيس فرنسا قادراً على جمع العالم الصناعي والعالم الثالث؟ وأية فرنسا تحتفل؟



أحياء
١٩٨٩/٧/١٥